

بطرس الموري أو البلوبونيزي (1730 - 1777)

لمبذاريوس كنيسة الله العظمى في القسطنطينية

أضواء على علاقة الموسيقين البيزنطيين
بالمُنشدين المسلمين في السلطنة العثمانية
بقلم جوزيف يزبك

مقدّمة:



لم تكن نتائج وقوع القسطنطينية في أيدي الجيوش العثمانية في السنة 1453 كلها سلبية، بل فتح هذا الحدث فرصاً جديدة للموسيقين الكنسيين؛ أعجب السلاطين العثمانيين كثيراً بمقدرات المرتلين البيزنطيين الموسيقية وفنهم، ووجد عدد كبير من مرتلي البطريركية المسكونية وظائف لدوام جزئي وتعويض مالي كموسيقين في البلاط. عدد كبير من هؤلاء المرتلين أصبح خبيراً في موسيقى البلاط العربية - الفارسية، وبعضهم كان يدرس هذه الموسيقى العربية الفارسية حتى قبل دراسة البصالتيك¹ وهكذا، خلال قرون الاحتلال العثماني، تأثرت الموسيقى البيزنطية ببعض التلوينات المقامية الشرقية.

من أشهر مرتلي هذه الحقبة بطرس البلوبونيزي الذي ما زال يسود عمله على معظم تراتيل الكنيسة الأرثوذكسية حتى اليوم.

نشأته:

ولد بطرس في سبارتا أو لاكيزيمون سنة 1730، نزع الى أزمير Smyrne وهو يافع وتلقن مبادئ الموسيقى الكنسية فيها على يد راهب. ثم انتقل الى القسطنطينية سنة 1753 وكان من المعجبين بفن المرنم الأول يوحنا الترابيزندي Jean de Trapézonte. عين مباشرة مدير الجوقة الشمالية أي دومستكوس ثان في الكاتدرائية البطريركية في القسطنطينية في السنة 1764، ثم صار برتبة لمبذاريوس، مرتل جوق الشمال الأول، من

¹ أي الترتيل الكنسي البيزنطي

السنة 1770 لغاية 1777، بدون أن يمرّ برتبة دومستيكوس أول، وهذا انعام كبير وتقدير عظيم لنبوغه وعبقريته الموسيقية.

قضى بطرس حياته كلها برتبة لمبذاريوس بعيداً عن مسؤوليات المرنم الاول - الذي كان "يعقوب المرتل الأول" في تلك الحقبة - موقفاً كل وقته للدرس والتأليف. تعمق في درس الموسيقى اليونانية الكنسية والتركية والأرمنية، وكان الموسيقي والمغني المفضل في حفلات اليونانيين والأتراك على السواء.

دخوله مصحّ الأمراض العقلية حيث لحنّ قسماً كبيراً من تراتيلنا اليوم:

كان بطرس شخصية معروفة في وقته إذ كان أستاذاً مشهوراً في الموسيقى العربية الفارسية الكلاسيكية، وفي الموسيقى الاسلامية الدينية - أي كل من موسيقى الدراويش وموسيقى الأذان التقليدية.

أحد أقرب أصدقاء بطرس كان مؤدّن جامع يني كامي Yeni Cami، الجامع الجديد قرب جسر غلاطة Galata. في احدى المناسبات، كان قد دعى الشيخ بطرس الى العشاء في بيته قرب الجامع، فجلس الصديقان يتحادثان الى ما بعد منتصف الليل. تناول الحديث موضوع أذان الصبح، فسأل بطرس مضيفه عن سبب تخلي المؤدّن عن لحن أذان الصبح الذي اعتبر بطرس أنه الأقدم والأجمل. لم يكن لدى المؤدّن أي فكرة عن اللحن المذكور مع انه كان عارفاً بالموسيقى. بالنهاية، دعى المؤدّن بطرس للعود الى المئذنة واداء هذا اللحن بنفسه عند أذان الصبح. رفض بطرس هذه الدعوة في بداية الأمر مشيراً الى انه اذا تمّ اكتشاف أمره، بأن مسيحياً تجرّأ على دعوة المسلمين الى الصلاة، سيتمّ الحكم عليه بعقوبة الموت.

بالنهاية، اقنع المؤدّن ضيفه بحجة أن أحداً لن يتصور أبداً ان الذي يؤدّن هو لمبذاريوس الكنسية العظمى. وفي جميع الأحوال من سينتبه الى صوت المؤدّن في هذا الوقت الباكر من الصبح؟ وبالفعل، صعد لمبذاريوس الى المئذنة عند صلاة الصبح وراح يؤدّن. إلا أنّه، لسوء حظ بطرس، ولكن لحسن حظ تاريخ الترتيل البيزنطي، كان السلطان قد خرج ليتسحرّ وصادف في طريق عودته الى القصر ان مرّ موكبه بقرب الجامع الجديد في وقت الأذان. فمع تصاعد ألحان بطرس الرائعة من قبة الجامع الذهبية، توقف الموكب وترجّل السلطان تهيؤاً للصلاة، ثم سجد على السجادة التي وضعها خادمه أمامه، وما ان عاد فوقف، حتى أحسّ بحدوث أمر غريب، فتوجه ناظراً نحو المئذنة وتمتم: "أعرف هذا الصوت!"

أرسل الحراس ليقبضوا على بطرس في طريق عودته الى البطريركية، وجلب ليمثل أمام المحكمة بتهمة ارتكاب سلوك مشين جنائي.

الا انّ السلطان كان يعرف بطرس وكان يحبّ موسيقاه التي ألفها في بلاطه، مما حدى به الى تسريب خبر اعتقال بطرس الى البطريرك قبل حصوله. عندها، سارع البطريرك الى نصح بطرس حول الطريقة التي يجب ان يتصرف بها أمام القاضي.

بالفعل، ما ان مثل أمام القاضي وتليت عليه الاوراق، حتّى راح بطرس يغني ويرقص ويضحك ويلقي بنفسه على الارض دون ضابط. "يا للرجل المسكين!"، علق القاضي، "من

الواضح أنه مجنون! سيقوه الى المصحح ودعوه يمضي فيه 3 أشهر لنرى ان كان سيتعافى".
وصدق السلطان الحكم.

في هذه الأشهر الثلاثة، وضع بطرس مجموعة ضخمة جداً من المؤلفات الكنسية التي
ترتل اليوم في الكنائس الأرثوذكسية.

عمله:

- عمله في تطوير كتابة النوتة البيزنطية:

أدخل بطرس الموري الملقب بلمبذاريوس، نظاماً جديداً في كتابة النوتة البيزنطية،
أكثر بساطة وتحليلاً عن نظام يوحنا المرثل الأول. اتبع هذا النظام بطرس البيزنطي، تلميذ
لمبذاريوس وطور فيه، ثم اعتمده أيضاً جورجوس الكريتي وطور فيه بدوره ليسلمه إلى
تلاميذه المصلحين الثلاثة الذين ثبتوا أخيراً كتابة الموسيقى البيزنطية كما نعرفها اليوم منذ
السنة 1814.

لا يقتصر دور لمبذاريوس في الكتابة الجديدة التي نعرفها اليوم على كونه ساهم في
إرساء قواعدها، بل أيضاً على كونه لحن مجموعة كبيرة جداً من التراتيل في هذه الكتابة ونقل
إليها كل التقليد الذي كان معروفاً في وقته. فكان للمبذاريوس دور رئيس في انتشار الكتابة
الجديدة، وذلك بسبب ضخامة عمله في نقل المؤلفات الموسيقية البيزنطية الى هذه الكتابة،
بحيث صارت معظم التراتيل متوفرة فيها.
وهكذا يمكن القول بأن "أهمية عمل لمبذاريوس في التحليل² توازي أهمية عمله في
التلحين"³.

- عمله في تلحين التراتيل البيزنطية ونقلها إلى الكتابة الجديدة:

لحن بطرس الموري الملقب بلمبذاريوس أناشيد البيعة كلها مطولة ومختصرة على
مدار السنة كلها.

أما أشهر المؤلفات التي نقلها لمبذاريوس، فهو كتاب "القياميات" الذي نقله عن التقليد
الشفهي المتناقل عن يوحنا المرثل الأول. يحتوي كتاب القياميات على سائر تراتيل صلوات
نصف الليل والغروب والسحر لأيام الأحاد على الألحان الثمانية مطولة ومختصرة مع الأودية
الخاصة بكل لحن والقطع العامة في هذه الصلوات مطولة ومختصرة.

هذا الكتاب هو المتبع بشكل أساس في كل الكنائس الأرثوذكسية التي تتبع الطقس
البيزنطي وقد عرب قسماً منه بأمانة المرثل الأول في الكرسي الإنطاكي المقدس، الأستاذ
مترى المر في كتابه "القياميات" ولعل هذا الكتاب هو الأكثر استعمالاً في ترثيلنا الإنطاكي.

² أي النقل إلى الكتابة الجديدة (التحليلية)

³ M. HATJIYAKOUMIS, "Χειρόγραφα εκκλησιαστικής μουσικής 1453-1820", Athènes 1980, éd. Banque de Grèce, p.47

نقد عمله:

قال الموسيقيّ البلجيكيّ فرانسوا جوزيف فيتس Fétis (1784 - 1871) في لمبذاريوس أنّه أشدّ الموسيقيين الأتراك نبوغاً. وورد عنه في حديث خريستوس المصلح أنّه كان مطرب السلاطين العثمانيين الخاص. أمّا الدكتور تراتزيس Τζέτζετس اليونانيّ فقد دانه بقسوة وحملّه مسؤوليّات جسام، منها إدخال العناصر الموسيقيّة التركيّة والفارسيّة (عجم) على الموسيقى البيزنطيّة.

وفاته:

كانت اصطنبول - القسطنطينية في العام 1777 مدينة مقتظة بالسكان. تسلل الطاعون اليها بصمت من شارع الى شارع، زائراً البيوت والقصور من دون ضابط، فحصد معه بطرس البلوبونيزي.

في الفنار، كان البطريرك المسكوني صفرونيوس جالساً يستمع الى رئيس اكليروس كاتدرائيته وهو يطلعه على آخر الترتيبات للجنائز. حرتقة عند الباب حرّكت صفو تفكير البطريرك.

صوت من الخارج همس برسالة. نظر البطريرك صفرونيوس فرأى أحد أساقفته متفاجئاً وهو يحدّق به: شيوخ الدّراويش الاساسيين في اصطنبول يطلبون لقاء قداسته. كان الأمر في غاية الغرابة، اذ ليس في عادة شيوخ الدّراويش القيام "بواجبات" مع البطاركة المسيحيين. ارتعد صفرونيوس وهو يفكر فيما قد يكون المقصود بالزيارة.

بعد دقائق، انجلت الصورة، اذ وجد البطريرك نفسه أمام أرفع المسؤولين الاسلاميين وهم يهمسون بأحرّ التعازي عن روح الفقيد. ثم تقدم أحد الدّراويش الى الامام حاملاً نايه بيده وسأل البطريرك ان كان بإمكان الدّراويش أداء أناشيد الأموات الاسلامية التقليديّة لبطرس: "لقد كان أستاذنا نحن أيضاً، ونرغب بتكريمه".

أعطى البطريرك اذنه للشيوخ بما أنّ هذه الاناشيد لم تكن تشكل طقوساً دينية، الا انه تمنّى عليهم احترام القانون العثماني والوقوف على جنب خلال خدمة الدّفن. اتفق الجميع بسرور، ولأول مرة تصاعدت أناشيد الدّراويش المرفقة بأنغام ناياتهم حول أعمدة كنيسة البطريركية.

رافق الدّراويش مسيرة الدّفن لغاية أبواب المدينة حيث المدافن الاورثوذكسية. وكان تأثرهم لموت لمبذاريوس شديداً حتى قال أحدهم وهو حامل نايه بيده: "سيدي، تقبل هذه الهدية من تلاميذك اليتامى، واعزف عليها عندما ترافق أنغام الملائكة في الفردوس".

المراجع:

- Giannelos, Dimitrios, Musique Byzantine: Tradition orale et tradition écrite (XVIIIe – XXe siècles), Thèse de doctorat sous la direction de I. Reznikoff, Université Paris X, Nanterre, Ethnologie, 1987
- Arimathea, “Psalmody - a fragment of a story”, <http://www.orthodox.co.uk/psalmodi.htm>
- Arimathea, “The Cantor's Funeral”, <http://www.orthodox.co.uk/singer.htm>
- هبّي، الأرشمنديت أنطون، مبادئ الموسيقى الكنسيّة البيزنطيّة (بحسب المذهب القسطنطينيّ)، طبعة ثانية، المطبعة البولسيّة، حريصا – لبنان 1964